

عوامل ظهور الدول الإسلامية المستقلة في المشرق الإسلامي. ارتبطت ظاهرة الاستقلال السياسي في الجناح الشرقي للعالم الإسلامي بإفرازات الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي خلال العصر العباسي الأول وقد بدأت هذه الظاهرة في منتصف القرن الثالث الهجري وبداية لا نستطيع أن نقر هذه المسميات التي اعتاد المحدثون أن يطلقوها على هذه الكيانات فيما عرف ويكفى أن نطلق عليها الدويلات الإقليمية أو الإمارات المستقلة في المشرق الإسلامي، وهذا الأمر راجع إلى الاعتماد على الأصول والتنظير في مثل هذه المسائل. فمن خلال كتب الأحكام، الماوردي الذي ألف كتابه الأحكام السلطانية في منتصف القرن الخامس الهجري بعد أن اكتملت التجربة وعاصر يذكر الماوردي في الجزء الخاص عن الإمارة أن الإمارة نوعان خاصة وعامة، تهمن الأولى على ضريين إمارة استكفاء بعقد عن اختيار وهي معقودة على عمل محدود ونظر معهود يفوض إليه الخليفة إمارة أو بلد أو إقليم على جميع أهله فيصير عام النظر. أما إمارة استيلاء بعقد عن اضطرار فهي أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارة ويفوض إليه تدبيرها وسياساتها ويكون الأمير باستيلائه مستبد أما الناحية الأخرى التي يشير إليها الماوردي في أحكامه: "إذا فوض الخليفة تدبير الأقاليم إلى ولايتها ووكّل النظر فيها إلى المستولين عليها كالذي في زماننا" أي أن إمارة الاستيلاء كانت تمثل قضية مطروحة على الساحة السياسية في عهده واجهها بالتشريع ليحافظ على شوكة الدولة وسلطة الخليفة من جانب ليفرض التعامل مع الواقع السياسي، أو أن التجربة كانت قد اكتملت وتحتاج إلى التنظير ووضعها في قالب كما يشير الماوردي أيضا إلى الشروط أو الواجبات التي تجب على الأمير المستولى تلك الواجبات التي تحدد العلاقة بين الخليفة وأمير الاستيلاء والتي في جوهرها دينية لحفظ حقوق الخلافة ومنها ظهور الطاعة. نجد أن قيامها قد مر بدورين الأول برضاء الخلافة وتمثل ذلك في قيام الطاهريين في خراسان 205 هـ / 820 م ، في خلافة المأمون والخلافة لا تزال مرهوبة الجانب وإن تخلت عن المركزية بعض الشيء بهدف حماية حدودها في مناطق الأطراف بعد أن بدأت الإقليمية تطل والدور الثاني قامت فيه بعض الكيانات السياسية رغما عن الخلافة، القدرة على الانفراد بالأمر مستفيدين من ضعف الخلافة العباسية التي وضعت تحت سيطرة الأتراك فقامت الإمارة السامانية ثم الغزنوية وغيرها، فضلا عن الإمارات التي قامت وسيطرت على الخلافة ومع أن هذه الدويلات كانت قوية فقد كانت تحاول دائما أن تحصل على رضاء الخلافة ما أمكن من خلال إرسال الأموال والهدايا إلى الخلافة بهدف الحصول على التقليد الشرعي في وقت كانت فيه الخلافة العباسية ضعيفة ولا تملك حتى أن تحمي نفسها بينما كانت هذه الدويلات تمثل قوة ضاربة في مناطق الأطراف، ومع ذلك كانت في حاجة دائمة إلى الشرعية من الخلافة التي تملك السلطان الروحي وحريصة على شراء هذه الطاعة وإن كان هذا الخضوع للخلافة مجرد خضوع اسمي، يستطيعون أن يستقلوا عن الخلافة تماما مثلما حدث في بلاد المغرب. كذلك نجد أن أمراء المشرق الإسلامي وإن كانوا حريصين على الاستئثار بالسلطة، حرصا على استمرار الطاعة والولاء للخلافة، فالإمارة الصفارية مثلا التي طمعت بعد قيامها في أن تحل محل الأتراك في الخلافة وكشفت عن نياتها بشكل سافر عندما خرج يعقوب بن الليث الصفار بجيشه لدخول بغداد نفسها لم يطعه جنده عندما ظهر الخليفة المعتمد على رأس جيش الخلافة وتخلوا عنه، على الخلافة وما تعرضت له الخلافة أثناء هذه الفترة من ضياع هيبتها، ومهما قيل عن وسائل إذلال الدويلات خلال سيطرة الأتراك ومن بعدهم البويهيين، لكن علاقتهم بالخلافة مع ذلك ظلت محكومة دائما بضرورة رضاء الخلافة واعتبار شخص الخليفة وأهميته لوجودهم رغم ضعف الخلافة. وهناك ارتباط بين ما قام به الفرس والترك تجاه الخلافة وبين هذه الشعوب والبيئة التي أتوا منها، الذين أقاموا عددا من هذه الدويلات في المشرق كانوا دائما محكومين باحترام شخصية الخليفة ارتباطا بماضيهم منذ أيام السامانيين فيما عرف بـ "الحق الملكي الإلهي المقدس" ، أما الأتراك فقد تأثروا أيضا بالبيئة التي أتوا منها وتمثل ذلك في طابع هذه العناصر التي اعتنقت الإسلام وما عرفت به من التعصب الشديد للسنة والنظرة الضيقة والولاء العميق لخليفة المسلمين. ولذلك فإن هذه التجربة في شرقي العالم الإسلامي تختلف عن تجربة الغرب، خاصة في بلاد المغرب فمع أنها تشترك مع المشرق في وقوع كل منهما في أطراف العالم الإسلامي، على الخلافة وهذا يرجع إلى اختلافها عن المشرق في نواح كثيرة منها خصوصية بلاد المغرب التي نشأت منذ واتضح هذا منذ بداية الفتوحات حتى أن مرحلة الفتح قد تجاوزت السبعين عاما بسبب المقاومة البربرية الشديدة الشرسة وما ترتب على ذلك من ضياع جهود الفاتحين، وتختلف بلاد المغرب أيضا عن المشرق من حيث مدى الحفاظ على الارتباط بالخلافة، فقد ارتبطت هي الأخرى ببيئتها وظروفها، حركات المعارضة التي فشلت في المشرق في العصر الأموي والعباسي وجدت مرتعا خصبا في بلاد المغرب، كما أن الدول التي قامت بها خلال القرن الثاني الهجري بدأت رافضة أساسا لوجود خلافة المشرق ونشأت أيضا كقوة معارضة مثل دولتي الخوارج ودولة الأدارسة العلويين، كما أن أول تجربة إقليمية أقامتها الخلافة العباسية برضاها كانت دولة الأغالبة عام 184 هـ / 800 م عندما أقرت الخلافة النزعة الإقليمية، وقد سبقت بذلك قيام الدولة كذلك ما

يؤيد أن هذه الكيانات التي قامت في المشرق كانت مجرد دويلات أو إمارات أن بعضها قد شمل فترة زمنية قصيرة مثل الإمارة الصفارية التي اقتصرَت على خمسة وثلاثين عاما من عام 254-290هـ والطاهرية قبلها فيما بين 205-259هـ والسامانية ما بين 279-378هـ والإمارة الزيارية ما بين 376-432هـ ما جعل البعض يطلق عليها الإمارات المستقلة أو الأمراء المستقلون ومما يؤيد ذلك أن نفوذهم السياسي لم يتجاوز الحد الذي ذكرناه بل دليل الألقاب التي اتخذوها والتي نقشوها على سكههم، فلم يلقبوا بالألقاب السلطانية إلا في فترات إنما ظل الواحد منهم يلقب بلقب الأمير أو الملك. الفارسية أن تتغلب على إيران كلها في حركة سياسية شاملة، إنما حدث أن كل إقليم من أقاليم إيران أو كل ولاية من ولاياتها حصلت على الاستقلال الذاتي وظهرت بينها إمارات تنظر إلى الإمارات الأخرى نظرة عدا حتى إذا بدأ الضعف على إحداها قامت أخرى لتبتلع ممتلكاتها وذلك لأنه لم يكن هناك ثمة تفكير في قومية إيرانية شاملة فكانت مرحلة الاستقلال المجزأ. كذلك لم يكتف هؤلاء الأمراء بتأكيد انتسابهم إلى الأكاسرة الفرس، بل راح بعضهم يعمل على التشبه بهم في نظم الحكم وإحياء الكثير من التقاليد الفارسية القديمة فمنهم من لبس تاج كسرى من آل زيار حيث عمل له تاجمن الذهب جمعت فيه أنواع الجوهر وضرب له سرير من ذهب مرصع بالجوهر، عظيمة وجعل أمامه سريرا من الفضة عليه فرش مبسوط ودون ذلك كراسى مذهبة ليرتب أصحاب الأقدار بمراتبهم وإذا كان آل زيار قد جهروا بهذا الأمر فإن غيرهم من الأمراء مثل الطاهريين والسامانيين والغزنويين الذين ظهروا بمظهر الولاء الكامل للخلافة العباسية كانوا في حياتهم الخاصة وجالسهم وبلاطهم ودواوينهم إنما ونلاحظ أيضا أن بلاط هؤلاء الأمراء كان من أهم المراكز التي كانت تجذب الكثيرون مثل بلاط السامانيين بخارى وبلاط الغزنويين في غزنة. أما عن ظروف قيام هذه الدويلات فإنها ترجع إلى عوامل مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية وبعضه كان كامنا في جسم الخلافة في عصرها الأول وعندما تجمعت لها الظروف بدأت الإقليمية تطل برأسها وتحاول أن تؤكد وجودها على كافة الأصعدة، حتى تصبح السمة الغالبة للعصر العباسي الثاني، العباسية قد ضعفت بعد الخليفة الواثق مباشرة بسبب ظهور عنصر الأتراك على المسرح السياسي، يمثل حدا فاصلا بين عصرين متميزين بالنسبة للأتراك عام 232هـ وكان ظهور الأتراك مرتبطا بتغير أحوال من خلال سيطرة القوى الخارجية على طرق التجارة العالمية برا وبحرا وهيمنتها الكاملة على التجارة وحرمان العالم الإسلامي من دوره التقليدي كوسيط في تجارة العبور بين الشرقى الشرق ظهر الخطر الصيني وعصف بالوجود الإسلامي في المحيط الهندي وطرد التجار المسلمين من مراكزها في الصين كما تعقبوا فلول المسلمين من الأقاليم التي اقتطعوها من آسيا الصغرى، البيزنطيون في أعالي العراق والشام واستولوا على الثغور الجزرية والشامية، كما استردوا جزيرتي قبرص وكريت في البحر المتوسط وسيطروا بأساطيلهم على شرقى هذا البحر، فأدى ذلك بدوره إلى حرمان الطبقة الوسطى التي عملت بالتجارة من مقوماتها الأساسية، إذ أن هذه الظروف الجديدة قد أثرت على النشاط التجاري بين أجزاء العالم الإسلامي وأدت إلى تدهور الأحوال الاقتصادية مما ساعد على ظهور الأتراك. وتفصيل ذلك أن المجتمع الإسلامي الذي شهد في العصر العباسي الأول ازدهارا ملحوظا على كافة كان عليه أن يواجه الظروف الجديدة التي نجمت عن تقلص مواردها من تجارة العبور كما المحنا، تزايدت الحاجة إلى الأموال للإنفاق على حياة البذخ ورواتب الجهاز الإدارى وأعطيات الجند، الفتوحات الإسلامية قد توقفت والتي كانت مغانمها تفي رواتب الجند، لذا لجأت الدولة إلى زيادة الضرائب من وبديهي أن تؤدي مثل هذه الإجراءات إلى مزيد من التدهور الاقتصادي مما ساعد على تدمير الطبقات المختلفة في شكل ثورات وتحول الطبقة الوسطى التي أسهمت في العصر العباسي الأول في ازدهار الحياة الاقتصادية عن ولائها وتصدر الثورات ضدها. لذلك زادت حاجة الدول إلى الجند، ولما كان الفرس والعرب يكونون جيش الخلافة آنذ، العباسيين تضعف بالفرس خاصة من طموح أبي مسلم الخراساني والبرامكة وبنى سهل. شأنهم منذ قيام الدولة العباسية، لذلك لجأت الخلافة إلى عنصر جديد هو عنصر الترك. وكان طبيعيا أن ينشأ الصراع بين الجند القديم والجند الجديد وأدى ذلك إلى زيادة المعارضة واشتعال الثورات مما ساعد على تزايد الحاجة إلى المال لضمان ولاء الترك، فاجتاحت الخلافة إلى إقطاع الأرض للجند الجديد مقابل الخدمة العسكرية. والقضاء على الثورات، لكن ضعف الخلافة بعد الواثق مباشرة وتناقل المؤرخون الأخبار حول العدوان على أشخاص الخلفاء بالسجن والتعذيب أو العزل وردوا ذلك إلى ضعف الخلفاء العباسيين وانصرافهم إلى اللهو والمحنا سلفا، فضلا عن التخلخل الذي أصاب جسم الخلافة نفسها، فالخلافة كانت تستمد نفوذها من صادر متعددة. بداية اعتمدت الخلافة على دعوة دينية منظمة بين رؤساء التنظيم في بغداد وبين شبكات الدعاة وجماهير الأنصار في الأقاليم ظلت طوال العصر العباسي الأول، ولم تضعف فقط صلات الخلفاء العباسيين في العصر الثاني بشبكات الدعاة في كافة أرجاء العالم الإسلامي، للغاية بعد الخليفة المتوكل، الأول من أمراء الأمصار، وهذا معناه أن الخليفة قد فقد قيادته لهذا التنظيم العقائدي مما أدى إلى فقد بعض مظاهر الهيبة فضلا عما تعرض له الخلفاء من مظاهر الإنزال من قبل القادة

الأتراك. لكن هذا فمعلوم أن السفاح وسليمان، المنصور، كما أن الخليفة المنصور نفسه قام بعزل سليمان من ولاية العهد كذلك وجدنا العباسيين يميلون إلى الثنائية في تولية العهد فالسفاح يولى أبي جعفر ثم عيسى بن موسى والمنصور يولى المهدي ثم عيسى بن موسى، وهذا يبين أن ضعف الخلافة العباسية لم يظهر فجأة، بل أن عوامل الضعف كانت مرتبطة بعوامل القوة أيضا. فضلا عن ذلك اعتمدت الخلافة على عصبية قوية متماسكة تؤمن أن بقاءها مرتبط ببقاء الخلافة قوية العباسية مصدر من مصادر القوة. وقد بدأت العصبية العربية تضعف تدريجيا بسبب ترق العرب في الأمصار واختلاط أنسابهم مع أهالي البلاد المفتوحة، كما أن الخلافة نفسها قد نجحت في تلاشي وتضاؤل العنصر العربي معنى ذلك، فإن فقدانها يؤدي إلى ضعف الخلافة. ولما كان الأتراك لا يولون الحياة الاقتصادية أي اهتمام، بل عكفوا على جمع الأموال دون النظر إلى المصلحة العامة وتحسين أحوال الرعية، كما انعكس تسلطهم على الحياة الاقتصادية إلى اللجوء إلى وتمثلت هذه هصورا شتى في الريف والحضر، فبدأت في الريف بهروب الفلاحين من الضياع وتحولت إلى قطع الطرق ثم تطورت إلى ثورات فلاحية، أما في المدن فكانت حركات المعارضة أكثر تنظيما وفعالية بسبب زيادة الوعي الطبقي حتى استطاعت أن تكون نقابات وأصناف، انتظم فيها التجار وأهل الحرف ومنها تنظيمات العيارين والفتيان، فكانت تقطع الطرق على قوافل كبار التجار وتقتال قادة الترك، الإدارى المتواطئ مع السلطة وتشكلت فرقا لحماية الأسواق من المغارم كرد فعل لتجاوزات الأتراك، كذلك مؤازرة المصلحين من المتنافسين في الحكم. وقد شاعت حركات الفتان في العالم الإسلامي بأسره وإن اختلفت تسمياتها باختلاف الأقاليم فعرفوا كذلك من العوامل التي ساعدت على ظهور هذه الإمارات التقدم الإيراني للعناصر الإيرانية ثم التركية وفيما يخص العناصر الإيرانية نجد أنها قد استطاعت أن تتقدم بشكل كبير، فهي التي أيدت الدعوة العباسية من البداية وكانت عدتها ورجالها وقود الثورة، وجندوها هم الذين حملوا عبء الدفاع عنها في زحفها نحو وظل أهل خراسان أداة المنصور في القضاء على أعدائه الذين قاموا بثورات خاصة في الحجاز، كما كما أن العباسيين لم يتخلوا عن أهل خراسان، ظهوروا وانتصروا بعد الصراع بين الأمين والمأمون واستعان بهم المأمون ليتمكن السلطانة وقد احتكروا كثير من المناصب العسكرية، كما كانت بيدهم الوزارة بداية من أبي سلمة الخلال وأبي أيوب الوديعاني وزير المنصور الأول كانوا من العناصر الإيرانية. فقد كان للوزراء أعوان من الكتاب كذلك لولاة الأقاليم، بل وصل الأمر إلى توارث هذه المناصب السياسية، وإذا كان العرب قد استطاعوا أن يظهروا على المسرح السياسي خلال خلافة الأمين فإن انتصار المأمون بعد تأكيد لنفوذ أهل خراسان، وإذا كان العباسيون قد انتهجوا سياسة معينة تجاه العناصر الإيرانية الصاعدة والتي كانت تقوم على أساس نظرية المشاركة في إتاحة الفرصة لهذه العناصر في الحصول على ما شاء لها من مناصب في حدود الطاعة وإلا كان نصيبها الكبت والقهر وأن كانت الخلافة لم تتخل عن هذه السياسة طوال عصرها الأول متمثلة في قتل أبي مسلم الخراساني ونكبة البرامكة ثم نكبة بنى سهل، فهذا كان في صالح الخلافة حتى لا تزل لكن مع ضعف الخلافة كما بينا انتهزت هذه العناصر الفرصة مستفيدين من الأوضاع العامة، ويرى البعض أن ظهور هذه الإمارات يعد تعبيرا عن قومية إيرانية واضحة، أما الحركات الاستقلالية التي قام بها وتجدر الإشارة إلى لفظ يرد كثيرا في كتب المؤرخين وهو لفظ "المتغلبون" أو حكام الأطراف، وهذا اللفظ يرجع إلى الكيفية التي تحكم بها هؤلاء الأمراء سواء كان أمير أو صاحب جند أو قائد يتغلب على ناحية من النواحي يطلقون عليه اسم "المتغلب" أو "صاحب" "طرف" أما الفرس فيطلقون عليه طرفدار وإمارته "إمارة وقد أسلفنا القول أن هذه الكيانات قد مرت بدورين برضاء الخلافة، ورغما عن الخلافة، أي بالتفويض ثم الاستيلاء وقد استخدمت هذه الألفاظ في كتب المؤرخين، الإسلامية إلى قسمين قسم نشأت فيه الولاية باختيار الخليفة، للعدو بغرض الاهتمام بهذا الثغر وتقويته ليستطيع دفع الأعداء أو مد نفوذ المسلمين في هذه الأطراف المتاخمة أما القسم الآخر الذى نشأت فيه الولاية على كره من الخليفة وفي إقراره نوع من المرونة السياسية للأمر والدولة الصفارية، والدولة الزيدية في طبرستان وجرجان وبلاد الديلم، أما الدول التركية التي قامت في المشرق الإسلامى هي الدولة الغزنوية، والدولة السلجوقية، والدولة الخوارزمية ودولة الإسماعيلية في إيران، وسوف نستعرض لهذه الدول حسب ترتيب قيامها الزمني. حيث كان لانتصار العنصر الفارسي وإعلاء شأن زعيمهم الفضل بن سهل ورجاله الذين اصطنعهم، أن وزيادة مطالبهم بمكاسب أخرى، نجده، قائده طاهر بن الحسين حق إقامة دولة مستقلة سنة 205هـ/821م عرفت بالدولة الطاهرية